ليلة العيد

ذهبت لزيارة خالتى أم علىّ عجوز القرية عندما لبيت دعوة صديقتى المعتادة، لقضاء إجازة عيد الأضحى . فقد كنت أجد عندها أحدث الأخبار والأقاويل ، وأكثرها تشويقاً . وكانت تحدثنى دائماً أحاديث طويلة مضحكة لا أظنها إلا من نسج خيالها . وكانت أم على خصبة الخيال ، غزيرة المادة ، تعبر عما يجول بخاطرها فى طلاقة وقوة تدعو إلى الدهشة ، كما كانت تنحو نحواً خاصا عند قصها الحكايات والأخبار . وكانت حكاياتها تدور حول شبابها وحول جلها الفتاك ، الذى أصبح أثراً بعد عين ، والقلوب التى غزتها والمعارك التى كانت تقوم بين شباب القرية حولها . وكنت أحب الاستماع إليها لخفة روحها التى كانت تنسينى قبح شكلها ، بالرغم من أنى كدت أحفظ عن ظهر قلب كل ما كان عندها من حكايات .

دخلت عليها هذه المرة وحيتها فى حرارة ، غير أنى لاحظت أن أمراً أصابها . فهى لم تستقبلنى بالمرح والحرارة اللذين ألفتهما منها ، فهممت بالانصراف . وكأنها لاحظت منى ذلك ، فأسفت على ما فعلت ، وسرعان ما تغيرت وعادت إلى طبيعتها المرحة ، وهبت واقفة ترحب بى بالعبارات المعتادة التى كنت أشتاق إلى سماعها منها . ولكن ذلك لم يكن ليخفى الألم الذى كنت قد لاحظته عليها أول الأمر .

وقالت معتذرة :

— لا تؤاخذينى يا بنتى ! لقد سمعت قصة آلمتنى . وكم أود لو أستطيع لهذا الاشكال حلاً .

فقلت لها :

— هات ما عندك يا خالة ، لعلّى مهتدية إلى حل إشكالك .

وهنا اتجهت بنظرها إلى ناحية من الغرفة ، وكنت إلى ذلك الوقت لم ألحظ أن فى الغرفة غيرها ؛ إذ شغلنى ألمها البادى أول الأمر عن ملاحظة أى شئ

آخر . فرأيت فى أحد أركان الغرفة الرحبة امرأة ترضع طفلا عمره نحو سنتين . وتأملت فى وجه الفلاحة فاذا بى أمام جمال يعجز القلم عن وصفه مهما أوتى من قدرة ؛ وجه كله فتنة فطرية ، فيه سذاجة وبراءة طبيعية ، لا نجدها إلا فى الريف ؛ وجه صبوح يبعث الراحة والهدوء ، وثغر باسم وإن كنت قد لاحظت شيئاً لم أدرك كنهه وراء هذه الابتسامة الخلابة . واستوقفنى جمال عينيها والروح التى تنبعث منهما ، ففى نظراتها حزن عميق ، وألم دفين ، وأسرار غامضة ، خيل إلىّ أنها تعود إلى سنين مضت . وشعرت صاحبتنا بعينىّ لا أرفعهما عن وجهها ؛ فحاولت إخفاء شئ عنى ، كأنها تريد ألا تشعرنى بما يجول فى خاطرها فيؤلمها ويقلقها ، فابتسمت تلك الابتسامة الجميلة ، ثم حنت رأسها على طفلها كأنها تهمس فى أذنيه بشئ ما .

وذكرتنى وهى فى هذا الوضع بصورة مريم العذراء والسيد المسيح . وكم وددت لو كان ميكل أنجلو إلى جانبى ليرسمها على لوحة تبقى مدى الدهر ويتمتع بها محبو الفن . غير أن خالتى أم على لم تتركها طويلا تسبح فى عالمها ، فحدثتها عنى بما جعلها تطمئن إلى وتأنس بى ، فرفعت رأسها وتفرست فى وجهى بضع ثوان ثم ابتسمت ثانية ابتسامة عبرت عن رضا تام وثقة كبيرة . وهنا كررت على أم علىّ سؤالى ، فقالت :

— المسألة مسألةَ الشيخة فاطمة ، وقد سمعتها منها فأثرت فىّ . كم أكون مسرورة يا بنيتى لو استطعت مساعدتها . لقد أطلق عليها أهل قريتها لقب شيخة بعد ما وقع لها . . .

فقلت ضاحكة :

— لعلها تتنبأ بخير يأتينا قريباً أو بعيداً .

فقالت أم على :

— بالله عليك لا تضحكى . وأمامك أم فقدت أعز ما تملك ، وهى على حافة الهاوية مرة أخرى . إن مشكلتها كبيرة تحير الألباب ، لم أر مثلها فى حياتى . حقا أنى لست بعجوز ، ولقد مر بى كثير من الأحداث .

وكانت هذه عادة أم على أن تذكرنا بأنها لم تهرم بعد ، وإن كان سن الشباب قد ولى . ورجوت الشيخة فاطمة أن تقص علينا قصتها ، فقالت : إنها تزوجت من ابن عمها ، وكانت موفقة كل التوفيق فى زواجها . وفى نهاية السنة الأولى من زواجها ، وضعت طفلة لم تقابل بالترحاب ؛ لأن الزوج كان يأمل

أن يولد له غلام . غير أنه سرعان ما نسى شوقه إلى غلام ؛ لأن زينب ملأت عليها البيت بضحكها وصراخها ، وخلقت فى البيت جوا من البهجة والمرح . كما كانت مشغوفة بأبيها لاتتركه طويلا . وسرعان ما مر الزمن ، وإذا بها تبلغ العامين من عمرها ، ووالدها فى راحة وهناء قلما يتمتع بهما الناس ، ولكن . . . دوام الحال من المحال — ثم أغمضت فاطمة عينيها ، وتنهدت بألم ، وعضت على شفتها كأنها تود أن تبعد من مخيلتها صوراً وذكريات ، ورأيت دمعة تسقط من عينيها المغمضتين ، حاولت هى إخفاءها بمسحها بيدها . فأردت أن أروح عنها ألا أتركها تكمل حديثها ، ولكنها صممت على متابعة كلامها وقالت :

— انتظرى قليلا ، فما حدث بعد ذلك هو موطن دائى . فى ليلة عيدالأضحى جلست أخيط ثوب ابنتى الذى كانت ستلبسه أول يوم العيد . وما انتهيت من الثوب حتى آثرت أن آوى إلى فراشى لكى أدفأ ، إذ كان الشتاء فى تلك السنة شديد البرد ينفذ إلى العظام . وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب فى منتصف الليل ، ففتحت عينى وأنصتّ ، ولكنى لم أسمع سوى المطر المنهمر ، وكأن أبواب السماء تفتحت عيون كبيرة ، يتدفق منها الماء تدفقاً هائلا . وكنت أسمع صوت الرعد قويا وأرى البرق الخاطف ينير غرفتنا الصغيرة من آن لآخر . ورأيت زوجى نائماً نوماً عميقاً بعدعمله الشاق فى الغيط . ولما لم أجد ما يزعج تركته ينام حتى يستقبل العمل فى اليوم التالى موفور النشاط . ثم حاولت النوم ، غير أنه لم تكد تمضى بضع دقائق كنت قد استغرقت فى النوم أثناءها حتى سمعت الطرق على نحو أعنف ففتحت عينى ثانية ، وجعلت أنصت إلى صوت آخر إلى جانب صوت المطر الذى كان قد اشتد . وشعرت أنى منقبضة النفس ، كأنى أنتظر حدوث مكروه . إن ثورة الطبيعة العنيفة خيلت إلى أن هذه هى نهاية العالم وفناء من عليه . فحاولت أن أسرّى عن نفسى بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن اعتدت قراءتها كلما شعرت بخوف أو اضطربت . وهممت بأن أوقظ زوجى ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، إذ تذكرت العمل المضنى الذى يقوم به من طلوع الشمس حتى غروبها . كل هذا وصغيرتى تنام بجانبى نوماً هادئاً . وحاولت أن أنام ، فلما لم أستطع قمت من فراشى وتوضأت وصليت ركعتين لله تعالى . لعله يسرّى عنى ويزيح هذا الكابوس الذى أشعر به . وكأن الصلاة بعثت فى نفسى الراحة المنشودة فنمت ، ولكن نومى لم يطل إذ استيقظت على الطرق لثالث مرة ، وقد اشتد حتى خيل إلىّ أن

باب الغرفة كاد يقلع . فصرخت قائلة : من ؟ من هنا ؟ ولما لم يجبنى أحد ، أيقظت زوجي وقصصت عليه ما سمعت . فقال وهو نصف نائم : هذا صوت المطر يا فاطمة ، نامى ولا تنزعجى . غير أنى لم أستطع أن أنام ؛ فقد كنت لا أزال أسمع الطرق . وأخيراً وأنا بين اليقظة والنوم رأيت الباب يفتح بكل لطف وسكون ، ثم رأيت شبحاً طويلا يلبس ملابس بيضاء ، يدخل الغرفة ويقترب منى شيئاً فشيئاً حتى وقف إلى جانبي . وانعقد لسانى من شدة الخوف ، فلم أقو على الكلام أو الصراخ . وكأنه فطن إلى ما أردت فعله ، فقال بهدوء : لا تخافى منى لا أريد إلا زينب الصغيرة . وأخذها من جانبي ، ومسك يدها ، وخرج بها من الغرفة. فصرخت صرخة خرجت من أعماق قلبي ، استيقظ على أثرها زوجي وابنتى ، وأخذت أتلمس ابنتى فاذا بها ما زالت إلى جانبي ، فأخذتها وضممتها إلى صدرى فى قوة وعنف ، وصرت أقبلها بشغف ولهفة ويدى تتحسس جسمها الصغير وتتلاعب بشعرها لأجد فى لمسى إياها الراحة التى كانت تملأ جوارحى كلما فعلت ذلك . ولكنى لم أستطع ، فبكيت بكاء مرا واضطربت أعصابى ، حتى خيل إلى زوجى أنى قد جننت ؛ ومازال بى يلاطفنى ويهدىء من روعى ، حتى استطعت الكلام . فقصصت عليه ما وقع ، ولكنه سخر منى وقال ضاحكا : لا تخافى شيئاً إننا مؤمنون ، ولن يسيئنا الله فى أعز ما نملك . هذا كابوس لأنك أكلت كثيراً ليلة أمس ، ثم نمت بعد العشاء مباشرة وساعد على الكابوس الطبيعة الثائرة . أرقدى إلى جانبي ، لقد بدأت الديكة تصيح ، وعما قريب تبدد الشمس ظلمات الليل ، ويذهب معها كل خوف .

لم أترك ابنتى تبتعد عنى طوال اليوم التالى ؛ إذ استمر يساورنى شعور مبهم من الخوف على وحيدتى . ولم يكد ينتصف النهار حتى قربت منى ووضعت رأسها على صدرى ، ثم ضمتنى إليها بحنان وقبلتنى كعادتها وقالت : « أمى هنا واوا » مشيرة إلى عنقها . خفق قلبي وتذكرت الليلة الماضية ، فمادت الأرض تحت قدمى ، ولو أن الأرض انشقت وابتلعتنى فى تلك اللحظة ، لكان أهون على من رؤية ابنتى وهى تشكو . أرسلت أحد الغلمان لنداء زوجى فحضر مسرعاً ؛ إذ لم تكن من عادتى أن أناديه أثناء عمله . فأخبرته بما وقع ، فأشار على بوضع كمادات دافئة على عنقها ، وأخذ حارته وذهب لاستدعاء طبيب المركز . وخيل إلى وأنا فى انتظاره أن الزمن لا يتحرك وأن غيابه طال . ولم تلفظ زينب كلمة واحدة رغم كل الجهود التى كنت أبذلها معها . وأخيراً حضر الطبيب مع زوجى . وما كاد يفتح فمها

حتى هز رأسه كمن لا حيلة له أمام إرادة الخالق ، وقال : الطب لا يجدى ولا ينفع . تشجعوا فالموت علينا حق وأنتم ما زلتم صغار . . فقطعت عليه كلامه بصرخة حادة ، إذ كنت أرى طفلتى العزيزة وهى فى أشد الألم تعانى سكرات الموت . وأخيراً أسلمت الروح ، وصعد مَلَكٌ صغير إلى السماء . فقطعت عليها كلامها ، وسألتها : ألم يخبرك الطبيب بأى شئ ماتت . قالت : نعم ، سألته فقال إنه مرض من أخبث الأمراض التى تصيب الأطفال ، إنه الخناق .

ومرت فترة كدت أنسى فيها هذه الحادثة ، لأن الله أنعم علىّ بطفلة أخرى . وعملت بنصيحة أهل القرية هذه المرة ، فتناسيتها أول الأمر ، ثم بعتها بمليم إلى أم عندها تسعة أولاد . واستحوذ على عقلى أحد المشايخ ، فأنفقت كثيراً من مال زوجى ، وبعت بعض الحلى فى صنع التعاويذ و إطلاق البخور ؛ فلقد كنت أخاف عليها أشد الخوف . ولكن كان هناك هاتف يهتف فى أذنى دائماً : انتظرى لم يحن الوقت بعد . لا تخافى الآن . وأخيراً حان ميعاد الزيارة المنتظرة ، وفى ليلة العيد زارنى الشبح زيارة تشبه الأولى ، ومرت أيام العيد دون أن يحدث شئ ، فكدت أطير فرحاً ، وبدأت أشعر بأن قلقى على طفلتى هو الذى أوحى إلىّ هذا الحلم المزعج . ولكن فى نهاية الأسبوع خرجت طفلتى تلعب مع سائر أولاد الجيران ، وعاد الجميع إلى أمهاتهم ، ولكنها لم تعد . وبحثنا عنها فى كل مكان فلم نجد لها أثراً ، وأخيراً وبعد أيام انتشلت جثتها من الترعة . وذاع الخبر عند أهل القرية ، فأطلقوا علىّ اسم الشيخة فاطمة . وحاولوا محاولات عدة لعلى أتنبأ لهم بشئ ، كما تنبأت بموت طفلتى ، ولكنى لم أستطع .

لم أطق صبراً بعد ما حدث لى ، فاعتزمت الرحيل وخاصة عندما أيقنت أنى أحمل بين أحشائى طفلا . وكنت لا أستقر فى مكان حتى أرحل عنه . ووضعت فى هذه الأثناء مولوداً ذكراً هو هذا . وأخيراً وصل بى المطاف إلى هذه القرية . وسمع الجميع بقصتى ، وكنت قد عزمت على الرحيل من هنا بعد يومين من وصولى ، ولكن ما لقيته من عناية ورعاية جعلنى أطيل إقامتى ، وخاصة عند خالتى أم على . فقد أشفقت علىّ وحاولت أن تسرّى عنى بحكاياتها المسلية .

فقلت لها :

— لا تيأسى من رحمة الله . إن المؤمن مصاب والله يمتحنك .

فأجابتنى والدمع يترقرق فى عينيها :

— لقد امتحنني بما فيه الكفاية . لقد وهب لي طفلتين جميلتين ، ولم أكد أتمتع بهما حتى أخذهما مني ، ولا أدري لذلك سببا . . . ثم قالت فجأة :

— إن عيد الأضحى بعد يومين ، سأمضي اليوم هنا عند خالتي أم علي لتروح عني ، وتبعد عن مخيلتي الخواطر المزعجة ، سأمكث عندها حتى مطلع الفجر . ثم أرحل إلى قرية بعيدة لا أعرفها ، ولا أعرف من أهلها أحداً . . . قرية بعيدة لا يستطيع الطيف أن يصل إلى فيها . إن الخوف يقلقني ولا يريحني لا ليلا ولا نهاراً ، ومصير ولدي محمد المعلق يذهب بعقلي . أرى خيوط الأمل فأتعلق بها ، ثم يعاودني اليأس القاتل فلا أستطيع الهدوء . لقد فقدت بنتين ولكن . . . محمد... إني لا أستطيع فراقه ، ولا أطيق البعد عنه لحظة من لحظات حياتي .

وأخذت تبكي في حرارة بكاءً مرًّا أليماً ، وكانت الزفرات تخرج من بين جوانحها فتهز مشاعري . ولكني تركتها تبكي أول الأمر حتى تزيل شيئاً مما بها ، وتريح أعصابها المحطمة ، فالبكاء في هذه الحال علاج نافع . وأخيراً بدأت أحدثها حديثاً طويلا عن رحمة الله الواسعة ، وأذكرها بعطفه على عباده، و أنه لا شك سيوليها من رحمته وعطفه الشيء الكثير ، وسترزق أولاداً ينسونها ما مرت به من شقاء وبؤس . وهكذا مر الوقت وأنا ألاطفها حتى رأيت الدمع يجف من مقلتيها ، وأعدت الابتسام إلى ثغرها . وقد كان لحديثي بعض الأثر ، فرأيت نوراً من الأمل إلى جانب ما كنت قد رأيت من ألم .

وتركتها بعد ذلك وعوامل اليأس والأمل تتنازعها . إن الموت نهاية كل كائن حي . ولكن من منا يستطيع أن يزيل عن أم آلامها ويجعلها تنظر إلى الموت نظرة فلسفية ! ولم يسعني بعد تركها أن أتم زياراتي المعتادة فقد كنت مرهقة الأعصاب حزينة النفس ، فآثرت أن أنضم إلى صديقاتي .

مضى أسبوع العيد وحان ميعاد رجوعنا ، فذهبت لزيارة خالتي أم علي لأستطلع أخبار فاطمة البائسة ، و إذا بها تستقبلني ضاحكة كعادتها . ولما سألتها عما كنت أودّ أن أعرف قالت :

— سافرت قبل العيد كما قالت ، ولا ندري عنها شيئاً الآن . لقد حاولت أن أخفف عنها ، ولكن . . . ثم هزت كتفيها ، وقالت ضاحكة : ماذا من موت طفل أو اثنين أو حتى ثلاثة ، إننا هنا في الريف نلد في سرعة ، وأولادنا أكثر من النمل من عاش عاش ومن مات مات . هه ! إنها عصبية دعينا منها ، إني لا أحب أن

أفكر كثيراً فيما يحزنني ، ولهذا حافظت على جمالي ! ثم بدأت تسرد قصصها الشيقة المعتادة .

لقد حاولت كثيراً أن أعرف أخبار فاطمة بعد ذلك ، ولكنّ تلك العجوز المرحة ، كانت مفتاحي الوحيد إليها ، وقد فقدت في أخبار فاطمة كل لذة وشوق ، إنها معنية بأحاديثها هي . ترى أين ذهبت يا فاطمة ؟ وماذا أصابك ؟ ألا فليلطف بك الله فلكم تألمت !

راجية فهمي